مساهمة قوافل الصحراء في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية في السودان الأوسط

د. عبد الرحمن عمر الماحي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لقد أطلق الجغرافيون المسلمون لفظ السودان الأوسط على المنطقة الممتدة من البحر الأحمر شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ، والواقعة بين الصحراء الكبرى شمالا وصحراء كلهاري جنوبا ، ويعرف الجزء الوسط من هذه المنطقة باسم " السودان الأوسط " ويقصد به المنطقة الممتدة من الضفة الشرقية لنهر النيجر الأوسط ، حتى الضفة الغربية للنيل الأبيض، ومن فزان شمالا إلى الغابات الإستوائية جنوبا .

وتضم هذه المنطقة اليوم الدول التالية : " النيجر ونيجيريا، والكمرون، وإفريقيا الوسطى والتشاد وغرب جمهورية السودان الديمقراطية "

وعلى الرغم مما حظي به تاريخ افريقيا جنوب الصحراء من دراسات هامة أسهم في إعدادها كثير من الباحثين، بالإضافة إلى العديد من المراكز والمعاهد العلمية المتخصصة ، إلا أن مايؤخذ على معظم هذه الدراسات عدم توجيهها عناية كبيرة إلى وضع السودان الأوسط حيث مازال الغموض والتعتيم في كتابات الباحثين المسلمين

من السمات العامة ، وقد اكتفى الكثيرون بالأخطاء الشائعة والآراء المتسرعة على أساس أنها حقائق تاريخية ووقائع جغرافية وثقافية مسلّمة .

وطبيعة موضوعنا تدعونا إلى الوقوف قليلا للتعرف على المعتقدات الشائعة في السودان الأوسط قبيل إنتشار الإسلام .

تسود الإحيائية [1] السودان الأوسط، وهي مجموعة معتقدات يعتنقها مجتمع بدوي لايكشف عما يدور في خلده ، فأنماط السلوك الإجتماعي الإفريقي تتحدد بالمعتقدات ؛ فأول مايشعر به الإفريقي الوازع الديني،ثم الثقة في مساندة الجماعة التي ينتمي إليها ، والطاعة والإنقياد للتقاليد التي تفرضها هذه المعتقدات المحلية .

ويعتقد الإحيائيون أن في هذا الكون المنظم قوة خفية تتحرك يتعين على الإنسان تحديد مسار حركتها بطقوس دينية ، وذلك لمنع الكوارث التي يمكن أن تصيب الإنسان في نفسه أو ماله أو أبنائه، وأن هذه القوة في مفهوم الإحيائيين كائن يعلو فوق الكائنات قام بخلق العالم دفعة واحدة ثم توارى عنه وخلد إلى الراحة وأناب عنه في إدارة السماء إلها كلف بالتصرف في الشر والخير ، والمطر والرعد، والحياة والموت ، وهو منزه عن صفات البشر. كما أناب عنه في إدارة الأرض إلها آخر ووضع في يده أدوات العمل والشر والخير والسحر ولكنه لم ينزه عن الأغراض والأهواء البشرية .

ولذلك يتجه الإحيائيون إلى عبادة الأسلاف ليكونوا وسطاء بينهم وبين تلك القوة الخفية ، وهم يرمزون إلى الأسلاف ، بحيوان أو

1- الاحيائية : هي الاعتقاد بوجود روح في الجماد والنبات كتلك التي لدى الإنسان

بشيء من النبات أو الجماد ، وأساس فكرة عبادة الأسلاف أن حياة الإنسان لا تتوقف بمفارقة الروح للجسد ، أي أن الموت لا يكون حدثا يسبب قطع الصلات بين الأحياء والأموات وإنما هو غفوة وارتخاء من جراء ضعف يصيب القوة الحياتية السرمدية ، وبمعنى آخر أن روح الميت تبقى مضافة إلى مجموع أرواح الأسلاف ويستطيع الأحياء الإستعانة بها عن طريق الإحتفالات الموسمية ، وهذه الإحتفالات في اعتقاد الإحيائيين تعيد التوازن الإجتماعي وتحرر الأحياء من الممنوعات وترضي الآلهة ، وتمحو الخطايا . كما أنها تعد تجديدا للروابط الأسرية بين الأحياء والأموات [1] .

فعبادة الإحيائيين تهدف إلى مد العمر بحياة أطول والحيلولة دون وقوع الشر وهم لا يرجون من الآلهة ثوابا بعد الموت لعدم ايمانهم بالبعث .

وبينما كان مجتمع السودان الأوسط يموج في خضم الإحيائية دخل الإسلام أول الأمر في شرق أفريقيا عبر البحر الأحمر في العام الخامس لظهور الدعوة الإسلامية في مكة المكرمة ، ونعني بذلك هجرة المسلمين الأولى إلى بلاد الحبشة وما ترتب عليها من نتائج حسنة في شرقي أفريقيا . كما دخل الإسلام شمال القارة الأفريقية عبر سيناء في العام الثامن عشر للهجرة ، وهو العام الذي فتح فيه الصحابي الجليل عمرو بن العاص البلاد المصرية ، وبالتالي فتحت

---

1 – الدكتور عبد الرحمن عمر الماحي : الدعوة الإسلامية في أفريقيا الواقع والمستقبل ، ص 9 – 13 .

بلاد النوبة سنه 31 هـ - 651 م . وبلاد المغرب في الفترة الواقعة بين عامي 21 و90 هـ الموافق لعامي 642 و708 م [1] .

وكان من الطبيعي بعد انتشار الإسلام في شرق وشمال القارة الأفريقية أن يدخل البلدان الواقعة في وسط القارة وغربها وجنوبها ، خاصة وأن الإسلام دين لطيف ينتقل مع الريح لاتقف في سبيله الحواجز المائية والرملية والجبلية والبشرية .

فكما أن البحر الأحمر لم يكن يحول بين المسلمين وشرقي أفريقيا ، وكذلك لم تكن الصحراء إلا عامل اتصال عبر عشرات الطرق التي كانت تتفرع منها وتؤدي إليها .

فقد كان عمرو بن العاص بعد أن أتم فتح برقة سنة 21هـ - 642 م وطرابلس سنة 23هـ - 644م . قد أرسل إلى فزان جيشا يقوده نافع بن عبد القيس الفهري ففتح زويلة وودان ومزرق وماجاورها ، وترك فيها دعاة يعلمون الناس الإسلام كما ترك ابنه عقبة مع الجيش المعسكر والمرابط في فزان ، وكان سنه آنذاك لا يتجاوز عشر سنوات ، فنشأ عقبة جنديا عارفا بطبيعة الصحراء وطرقها ومداخلها وقبائلها وقوافلها ، واشتهر أمره في هذه النواحي بسبب تأقلمه وفهمه لمجتمع الصحراء وبسالته في الميدان وحرصه الشديد على نشر الإسلام بين القبائل المتناثرة في الواحات [2] .

---

1 - البلاذري : فتوح البلدان ، ص 249 ومابعدها .

2 - الدكتور حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، ص 34 - 35 .
- وابن حجر العسقلاني : الإصابة في تمييز الصحابة . الجزء السابع ص 27 وما بعدها .

حيث كان مجاهدا ومرابطا وواعظا ومرشدا ونموذجا لما ينبغي أن يكون عليه المسلم المخلص لدينه وأمته ، وإلى جهوده وجهود والده يرجع نجاح المسلمين في سواحل وصحاري ليبيا وجبال تبستي وتاسيلي ، فقد وصل عقبة بن نافع إلى بلما عاصمة إقليم كوار سنة 46 هـ - 666 م . وترك فيها بعض الدعاة . وتبعد بلما عن بحيرة التشاد بحوالي 600 كم . تلك البحيرة التي ظهرت فيها الطلائع الأولى للمسلمين منذ ذلك التاريخ ، وأقرب الفروض إلى الصحة أن هذه الطلائع كانت من العرب والأمازيغ والنوبة الذين ماحلوا في منطقة إلاحولوا أهلها إلى الإسلام .

ويحتل إقليما فزان وكوار مكانة هامة في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية في السودان الأوسط. فهما يكونان معا الطريق الأوسط الذي يبدأ من القيروان ويمر بطرابلس ومزرق وبلما ، وينتهي عند انجيمي عاصمة مملكة كانم التي تقع على ضفاف بحيرة التشاد شمالا وهو الطريق المفضل لدى قوافل التجار والرحالة والدعاة والمهاجرين واللاجئين السياسيين لأنه أسهل الطرق الصحراوية وأكثرها مباشرة عن بقية المسالك وهي مايلي :

- طريق توات ، تمبكتو ، جاو ، سكتو ، كانو ، انجيمي ، وداي ، دارفور ، درب الأربعين ، أسيوط ، القلزم ، المدينة المنورة ، مكة المكرمة ، والعكس صحيح .

- طريق القيروان ، ورقلة ، غدامس، توات ، غات ، مرزق ، بلما، انجيمي ..

- طريق فاس ، تلمسان ، غرداية ، توات ، غات ، مرزق ، بلما، انجيمي ..

- طريق تاهرت ، غرداية ، ورقلة ، غدامس ، غات ، مرزق ،

بلما، انجيمي ..

- طريق القيروان ، توات ، أغادس ، زندر ، كانو ، انجيمي .
- طريق القيروان ، غدامس ، غات ، مرزق ، بلما، انجيمي .
- طريق توات ، غات ، مرزق ، بلما ، انجيمي .

وكانت القوافل تفرغ حمولتها في المراكز الرئيسية لتأخذها قوافل محلية لتوزيعها في مختلف الإتجاهات. وهذه المراكز أو المحطات في الوقت ذاته مكان للتموين وتأجير المرشدين والحراس وشراءالبضائع (1) .

وعند انجيمي ينتهي أيضا الطريق الشرقي الهابط من مصر الذي اشتهر بدرب الأربعين وكان يمتد من أسيوط إلى الخارجة ، والشب وواحة سليمة ، ثم لاقيا وبئر النطرون وكبي بإقليم دارفور ، وهي من كبرى محطات القوافل في الطريق إلى دارودای ومن وداي تسير القوافل إلى انجيمي عبر بحيرة الفتري وبحر الغزال أو طريق القاهرة ، سيوه ،زويلة ، مرزق ، بلما ، انجيمي .

وهذه الطرق كان لكل منها دور كبير في توثيق الصلات بين المغرب والسودان الأوسط ، سواء كان ذلك بنقل الإسلام وحضارته ، أم بتعزيز الروابط التجارية أم بإمداد شعوب المنطقتين (المغربية والسودانية) بدماء جديدة ، نتيجة الهجرات البشرية المتعاقبة التي اتخذت من تلك الطرق منافذ عبور لها .

ولاريب في أن هذه الطرق لم تكن من ابتكار قوافل القرون

1- J. CHAPELLE : LE PEUPLE TCHADIEN, P. 199 - 201

- و الشيخ عمر التونسي : رحلة إلى واداي ، ص 300 ومابعدها .

الوسطى ، بل كانت توجد منذ زمن سحيق كما أن الصحراء لم تكن فيافي بلا ماء وعشب ، بل تتوفر المياه فيها في بعض الواحات ، كما تتوفر فيها العيون الطبيعية والآبار الأورتوازية ، ولم تخل الصحراء التي تقارب مساحتها 8 ملايين كيلو متر مربع من الناس ، بل ربما كانت المنطقة الأكثر ازدهارا وحركة وملاءمة للإنسان. والشعوب التي كانت تسكنها بعد أن اعتنقت الإسلام ، أصبحت مؤهلة أكثر من غيرها للقيام بنشر الخير الذي جاء به الإسلام إلى كافة الجيران.

وتستغرق الرحلة عبر الصحراء في أقصر الطرق حوالي ثلاثة أشهر في الذهاب ومثلها في العودة.

والسؤال الذي يتبادر للذهن هو : ماذا كانت تحمل قوافل الصحراء وهي متجهة إلى السودان الأوسط ، وماذا كانت تجلب إلى بلاد المغرب والمشرق ؟

انها كانت تحمل إلى السودان الأوسط : الإسلام والحضارة الإسلامية ، فحيثما أشرق نور الإسلام نما معه التعليم ، إذ من الواجب على كل مسلم ومسلمة أن يتعلم في أقل تقدير مايكفيه لاداء شعائر الله كالمامه ببعض الآيات والسور القرآنية والأحكام الشرعية ، وهذه مقدمات لمعرفة اللغة العربية وانتشارها بين المسلمين.

ولا يخفى علينا أن الاسلام دائما يحث على التربية والتعليم ويجعلهما جزء لا يتجزأ من الدين الحنيف ، كما يحث أيضا إلى نقل الإنسان من التمزق النفسي والشعور بالضياع والنظام القبلي الضيق إلى مجتمع أرحب يسوده الاخاء ويظلله التعاون والوفاء ، مجتمع معيار الكرامة فيه التقوى والعمل الصالح .

فمنذ اليوم الأول الذي يعتنق الاحيائي فيه الإسلام لا يستطيع

أي مسلم أن يتسامى عليه بسمو الجنس أو برفعة النسب ، لأن الإسلام يجب ما قبله من الضلالات .

ومن البديهي أن نفهم كيف كان مظهر التجار المسلمين في ملابسهم الفضفاضة وهم يؤدون صلواتهم في انتظام وانضباط وخشوع لاله احتجب عن الخلق بنوره وخفي عليهم بشدة ظهوره يؤثر في الإفريقي الاحيائي . لان هذا الافريقي كانت له خبرة في احيائيته بعالم الغيب ، إذا فالإسلام بالنسبة إليه سلم نحو مفهوم أسمى للوجود والثقة بالنفس ، ووسيلة لتحقيق الانسجام والوحدة وكان يعتنقه بمحض ارادته بعد ان يقتنع به ويطمئن إليه ، فقد كانت التجارة عبر الصحراء في العصر الإسلامي لم تكن هدفا في حد ذاتها بقدر ما كانت وسيلة لنشر الإسلام وحضارته .

وكانت تحمل علاوة على الإسلام والحضارة الإسلامية مجموعة من السلع التجارية كالاقمشة والزرابي والسيوف والمرايا والكحل والسكر والملح والبهارات والعطور والتمور والكتب والورق والخيوط والابر ، وما اليها .

وفي العودة تجلب قوافل الصحراء إلى المغرب والمشرق : التبر والنحاس والحرير والعاج وبيض وريش النعام ، والجلود ، والعسل والقطن والفول والصمغ ، والابنوس والمواشي ، بالإضافة إلى السواعد البشرية التي كانت الدول الإسلامية في حاجة إلى تجنيدها كلما قامت فتنة بين الامراء أو حدث انشقاق في الدولة وقد شارك أبناء السودان الأوسط في حوادث كثيرة في بلاد المشرق والمغرب، حيث استعان بهم الخلفاء والأمراء والولاة في القضاء على الفتن والثورات وتوطيد نظام الحكم . وهؤلاء الجند كان بعضهم يقيم في المشرق والمغرب بعد تسريحهم من الخدمة العسكرية ، حتى أصبح

لهم تأثير في المجتمع . وبعضهم كانوا يعودون إلى بلادهم ، وكانوا أحسن نموذج لما يمكن أن يفعله الإسلام بالإنسان من حيث الثقة بالنفس والإرتقاء بمكانته الإجتماعية والإقتصادية والثقافية. ولانستبعد أن يكون هؤلاء الجند العائدون إلى بلادهم من أحسن الدعاة إلى الإسلام والحضارة الإسلامية بين أهلهم وذويهم وجيرانهم .

فقد ذكر المقريزي : 1364 – 1441م في كتابه : الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام : " أن الجند العائدون من المشرق والمغرب إلى أفريقيا جنوب الصحراء كان لهم نشاط واسع، وأن تأثيرهم كان كبيرا في المجتمع والسلاطين والأمراء والتجار مما مكنهم من الدعوة إلى الإسلام في كل مكان وبناء المساجد في كافة الحواضر " (1) .

وتعد قوافل الصحراء من أهم العوامل المساهمة في توثيق الروابط بين الشعوب ورمزا من رموز الإتصال المحكم بين اللغة والعقيدة والفكر والتفاعل الحضاري .

وكانت الصحراء تموج بقوافل التجار والعلماء والدعاة والرحالة المسلمين الذين ينتقلون من بلد إلى آخر كما تموج أيضا بالدبلوماسيين واللاجئين السياسيين الذين يعملون من أجل استرداد أمجادهم في كل مكان يحلون فيه .

---

1 – المقريزي : الإلمام ، ص 27 ومابعدها .

– ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج 6 ص 374 ومابعدها .

نشأة مملكة كانم [1] في السودان الأوسط :

ورد لفظ كانم في أكثر من مؤلف جغرافي وتاريخي منذ عدة قرون ، وتحورت كثيرا من جراء الصوت الأول الذي يتذبذب النطق به عند الباحثين والناقلين عن الإخباريين ، فالصوت يتناوب بين الكاف والقاف والغين ، وقد ذكرت الكلمة باعتبارها علما لشعب واسما لمكان منذ القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي .

فالفزاري [2] ، يذكر جماعة الكانم ضمن فريق يمم شطر المغرب بعد تفرق ولد نوح في الأرض ، والمسعودي [3]، يذكر جماعة الكانم ضمن الزغاوة والكوري ، والكوكا ، والتوبو ، والتيدا والطوارق، والأمازيغ ، و العرب.

وللتذكير فإن هذه أسماء وصفات لاتعني أكثر من ذلك لأن الإنتماء إلى سلالة أو إلى قبيلة أوأمة دون أخرى ، ربما كان أوضح خصائص البشر وأيسر عوامل التعرف عليهم لكنه ليس أساسيا أو هاما أمام الحقيقة الإلهية التي قررها القرآن الكريم قال تعالى :" ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون [4] ".

وقال تعالى: " ياأيها الناس إتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس

---

1 – كانم ، قانم ، غانم ، قالم .

2 – محمد بن إبراهيم الفزاري (ت 180 هـ – 796 م) أول من كتب عن أفريقيا جنوب الصحراء ، وذلك عند زيارته لها خلال النصف الأول من القرن الثاني الهجري (115 هـ) الثامن الميلادي (723 م).

3 – المسعودي (ت 345 هـ – 957 م)

4 – سورة الروم ، الآية 20 .

واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساطون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا [1] ". وقال تعالى: " ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير [2] " وقال تعالى : " ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف السنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين [3] " .

في أواخر القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي جاءت جماعة من المشرق والمغرب إلى بحيرة التشاد ، وكان من بينهم أحفاد أولائك الذين جاهدوا في الله حق جهاده مع عقبة بن نافع وحسان بن النعمان وموسى بن نصير في المغرب ، وعلى إثر ذلك ظهرت مملكة كانم في شمال البحيرة ، ثم اخذت تتسع حتى بسطت نفوذها السياسي والإقتصادي والثقافي في منطقة السودان الأوسط في الفترة الواقعة بين القرنين الثامن والخامس عشر الميلاديين ، وهي تعد أول مملكة إسلامية قامت في أفريقيا جنوب الصحراء وكانت معبرا أساسيا للإسلام [4] والحضارة الإسلامية بين القبائل الإحيائية

---

1 – سورة النساء ، الآية 1 .

2 – سورة الحجرات ، الآية 13 .

3 – سورة الروم ، الآية 22 .

4 – تنبيه : نشأت مملكة غانا سنة 300 م. دخلها الإسلام منذ القرن الأول الهجري الثامن الميلادي ، لكنها لم تصبح مملكة إسلامية إلا بعد أن دخلها المرابطون في القرن الحادي عشر ، واعتنق ملوكها الإسلام ، ثم قامت مملكة مالي على إنقاضها سنة 1240، واستمرت إلى سنة 1488م، حيث قامت مملكة سنغاي=

في الغرب والشرق والجنوب .

يقول القلقشندي (ت 821 هـ - 1418 م) : " إن جماعة من الأمويين وأنصارهم لجأوا إلى بحيرة ساو عند سقوط الدولة الأموية سنة 132هـ - 750 م واستطاعوا أن يكونوا نفوذا سياسيا واقتصاديا في السودان الأوسط ، وإن مملكة كانم قامت على أيديهم " ويقول في موضع آخر :" وسلطان كانم من بيت عريق في الإسلام، وقد جاء من إدعى النسب في بيت الحسن بن علي كرم الله وجهه وتمذهب بمذهب الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه ، وشيد مدرسة للمالكية واتخذها مركزا للعلوم والثقافة الإسلامية وشيد المساجد وأوقف الأوقاف وأجل العلماء واغدق عليهم ، والعدل قائم في بلاد كانم وأهلها يابسون في الدين [1] "

وقد نبغ الكانميون في العلوم الإسلامية واتصلوا بالجامعات الإسلامية في المغرب والمشرق وقرض بعضهم الشعر كأبي إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكانمي الذي مدح السلطان يعقوب المنصور الموحدي الذي حكم في الفترة الواقعة بين عامي 1184 و1199 م بقصيدة أجازه عليها وقربه منه بعد سماعها ومنها مايلي :

أزال حجابه عني وعيني ++ تراه من المهابة في حجاب
وقربني تفضله ولكـــن ++ بعدت مهابة عند اقتراب

وعلماء الجغرافيا المسلمون الذين طافوا الأقطار أمثال البلاذري

= التي إنهارت سنة 1750م، وكانت مملكة الفـــونـــج (1505 - 1821 م) أول مملكة إسلامية قامت في السودان الشرقي جنوب مصر .

1 - القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، ج 5 ص 279 - 282 .

(ت 279 هـ - 892 م) والمقدسي (ت 335 هـ - 947 م) والأصطخري (ت346هـ- 957م) وابن حوقل (ت 367هـ- 779 م).

والشريف الإدريسي :(494- 561 هـ /1098 - 1165 م) صاحب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق وياقوت الحموي: (575 - 627 هـ / 1179 - 1229 م) صاحب معجم البلدان .

كانوا جميعا يدمجون السودان الأوسط في الأقاليم الإسلامية وقد ساهمت الدول الإسلامية التي قامت في المغرب والمشرق في تشجيع قوافل الصحراء وتوطيد العلاقات السياسية والتجارية والثقافية بينها وبين مملكة كانم .

ومن بين تلك الدول :

الدولة الرستمية : (160 - 296 هـ / 776- 908 م) .

ودولة الأدارسة : (172 - 311 هـ / 788 - 923 م) .

ودولة الأغالبة : (184 - 296 هـ / 800 - 909 م)

والدولة الفاطمية : (297 - 567 هـ / 909 - 1171 م) بشقيها المغربي والمشرقي .

ودرلة الموحدين : (525 - 668 هـ / 1130 - 1269 م) .

والدولة الحفصية : (627 - 981 هـ / 1229 - 1574 م)

والدولة الزيانية : (633 - 962 هـ / 1235 - 1554 م) .

والدولة المرينية : (668 - 869 هـ / 1269 - 1465 م) .

والدولة الأيوبية : (576 - 648 هـ / 1171 - 1250 م) .

وكذلك دولة المماليك البحرية:(648-784هـ/1250-1282م) .

ودولة المماليك البرجية:(784- 923 هـ / 1382 - 1517 م)

ووصف كل من اليعقوبي في القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي ، والمهلبي الوزير الحسن بن محمد في القرن الرابع الهجري

العاشر الميلادي ، مملكة كانم بأنها إسلامية على غرار الممالك الإسلامية في المغرب والمشرق . كما وصفها ابن سعيد المغربي : (611 - 685هـ /1214 -1286 م) في المُغرب ، والمقريزي : (766 -845 هـ / 1364 - 1441 م) في الإلمام بأنها تمتد إلى ودان شمالا وضفاف النيل شرقا ، ونهر جاو غربا ، والغابات الإستوائية جنوبا ، وكانت لها سفارة في القاهرة مهمتها الإشراف على تنظيم قوافل التجارة والحج والإتصال بالسلطان لمعاونة الكانميين الوافدين إلى مصر فضلا عن تقديم المتطوعين للمشاركة في محاربة الصليبيين .

كما أنشأت مملكة كانم سفارة مماثلة مع الموحدين والحفصيين والزيانيين والمرنيين ، وكانت ترسل أبناءها للدراسة في الأزهر والزيتونة وتلمسان والقرويين [1] .

وبرع أهل كانم في التجارة حيث كانت لهم مراكز تجارية في المغرب ومصر وثغور البحر الأحمر .

نظام الحكم والإدارة في مملكة كانم :

تعتبر مملكة كانم مثالا حيا وصادقا لازدهار الحضارة الإسلامية في افريقيا جنوب الصحراء ، إذ نجدها تتكون من أربع ولايات كبيرة هي : كوار ، وبرنو ، وباقرمي ، ووادي ، وكان لكل ولاية وال يحكمها باسم السلطان الكانمي ، ويتلقى الولاة الأوامر والتوجيهات من السلطان [2].

---

1 - القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، ج 5 ص 280 - 281 .
- الدكتور غلاب وآخران : البلدان الإسلامية ، ص 515 وما بعدها .

2 - العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، ج 2 ق 3 ورقة 392 .

ويساعد الوالي عدد من الموظفين كالقاضي والمفتي وأمين سر الوالي ، ورئيس الخدمة ، وأمين بيت المال و مدير الشرطة ، ومدير البريد ، وغيرهم .

وتنقسم كل ولاية إداريا إلى كور ومناطق ودوائر ، ويرأس كلا منها أمير أو عقيد يخضع له السكان في ظل العلاقات المعهودة للنظام الملكي . وعليه أن ينفذ الأوامر والتعليمات التي يرسلها إليه والي الولاية

ومن اختصاص مجالس الولاية والكور والمناطق والدوائر ، النظر في مصادر ومصارف بيت المال ، والنظر في التدابير الخاصة بالأمن وتقسيم التكاليف المفروضة على الأفراد والجماعات والقرى ، وغير ذلك من الأمور التي تتعلق بالمصلحة العامة ، وكان لكل حرفة رئيس ينوب عن جماعته في الإتصال المباشر بالإدارة الوصية دون تدخل أي طرف آخر في أعمالهم الحرفية ، وللولاة الحرية في إنشاء أجهزة إدارية ومؤسسات إنتاجية تابعة لهم [1] .

وعلى الرغم من أن السلطان الكانمي كان يتمتع برياسة مجلس الوزراء ، ومجلس الشورى والمجلس العسكري ، فإنه لم يكن في الواقع حاكما مطلقا ، إذ لم يكن في استطاعته أن يتجاوز حدود الشريعة الإسلامية . فقد كان عليه قبل أن يتخذ أي مرسوم هام أن يحصل على فتوى من مفتي المملكة . فكثيرا ما أدى رفض المفتي

---

1 - الدكتور فضل كلود الدكو: الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لامبراطورية كانم ، رسالة دكتوراه نوقشت سنة 1981 بالأزهر ، غير منشورة .

إلى تراجعه والعدول عن مراسيمه ومشروعاته وكان تصريح المفتي بأن السلطان لا يحترم الإسلام كفيلا بالتمهيد لخلعه وإثارة الناس ضده . فهيئة كبار العلماء التي يرأسها المفتي كانت هيئة مستقلة وليس لها الحق في اتخاذ القرارات المتعلقة بشؤون المملكة ، ولكنها تلزم السلطان والأمراء والوزراء والولاة وعامة الناس بعدم مخالفة الشريعة الإسلامية ، الأمر الذي أدى إلى استتباب الأمن والمرونة الإدارية والرقابة المعنوية .

أما فيما يتعلق بالعمران فقد ظهر البناء بالطوب المحروق في قصور السلاطين والأمراء والوزراء والعلماء وكبار التجار والأعيان والمساجد ، منذ القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي . ويمكن أن نسمي الأسلوب المعماري بالطراز المغربي ، وهو يمتاز باتساع الفناء وكثرة الأعمدة والدهاليز ويبدو تأثير الحضارة الإسلامية واضحا في المدن التي نظمت من حيث تخطيطها لتلائم حياة المجتمع الإسلامي وفي بناء المساجد أفقيا وتنظيم المتاجر والمخازن حولها وإقامة أجنحة خاصة في كل مسكن لاستقبال الضيوف .

وكان يغطى سقف وجدران قصر السلطان بالجوخ الأخضر وتفرش الغرف والقاعات والممرات بالزرابي الثمينة النادرة المستوردة من المغرب .

ويصنع العرش من الأبنوس ، حيث يبلغ طوله مترين وعلوه مترا واحدا وتوضع على جانبه وسادتان من الجوخ الأخضر والأحمر محشوتان بريش النعام والقطن .

ويرتدي السلطان عباءة أو برنوسا من الجوخ المزركش ويلف على رأسه عمامة كبيرة يتلثم بجزء منها وعند خروجه من القصر لصلاة الجمعة أو العيدين يلبس عدة الحرب ، ويصطف الحرس على

الطريق الممتد من القصر إلى المسجد أو الساحة ، ويظل الحرس واقفا إلى حين عودته من الصلاة .

ونتيجة للعلاقات الوثيقة بين مملكة كانم والمغرب أدخلت بعض النظم العسكرية المغربية في الجيش الكانمي الذي كان يتصف بالقوة والبأس الشديدين .

وتؤكد معظم المصادر على أنه منذ القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي وحتى فترة اقتسام الإستعمار الأوروبي للسودان الأوسط في آخر القرن التاسع عشر الميلادي ، كان الإسلام شرعة ومنهاجا واللغة العربية لغة الدواوين والمراسلات الرسمية في مملكة كانم ، والمماليك الأخرى التي قامت في أفريقيا جنوب الصحراء .

وابتداء من سنة 1276 م أخذت مملكة كانم في التدهور حيث تعرضت الأسرة المالكة لهزات داخلية، وكان ذلك إيذانا بانفصال الولايات وتحولها إلى ممالك صغيرة . فنشأت ممكلة برنو سنة 1497 م ومملكة باقرمي سنة 1515م ومملكة ودّاي سنة 1535 م ثم أخذت تحارب بعضها بعضا في سبيل بسط نفوذها السياسي والإقتصادي في السودان الأوسط [1] .

ولاريب أن الإسلام والحضارة الإسلامية قد صبغا السودان الأوسط بالصبغة الإسلامية وبالتالي فليس غريبا أن تكون الأعمال المعاكسة التي يقوم بها اليهود والنصارى في المنطقة منذ مطلع القرن العشرين بقصد تحويل الناس عن الإسلام أو إبعادهم عن

---

1 - الدكتور عبد الرحمن عمر الماحي
نشاد من الإستعمار حتى الإستقلال ص 13 - 21 .

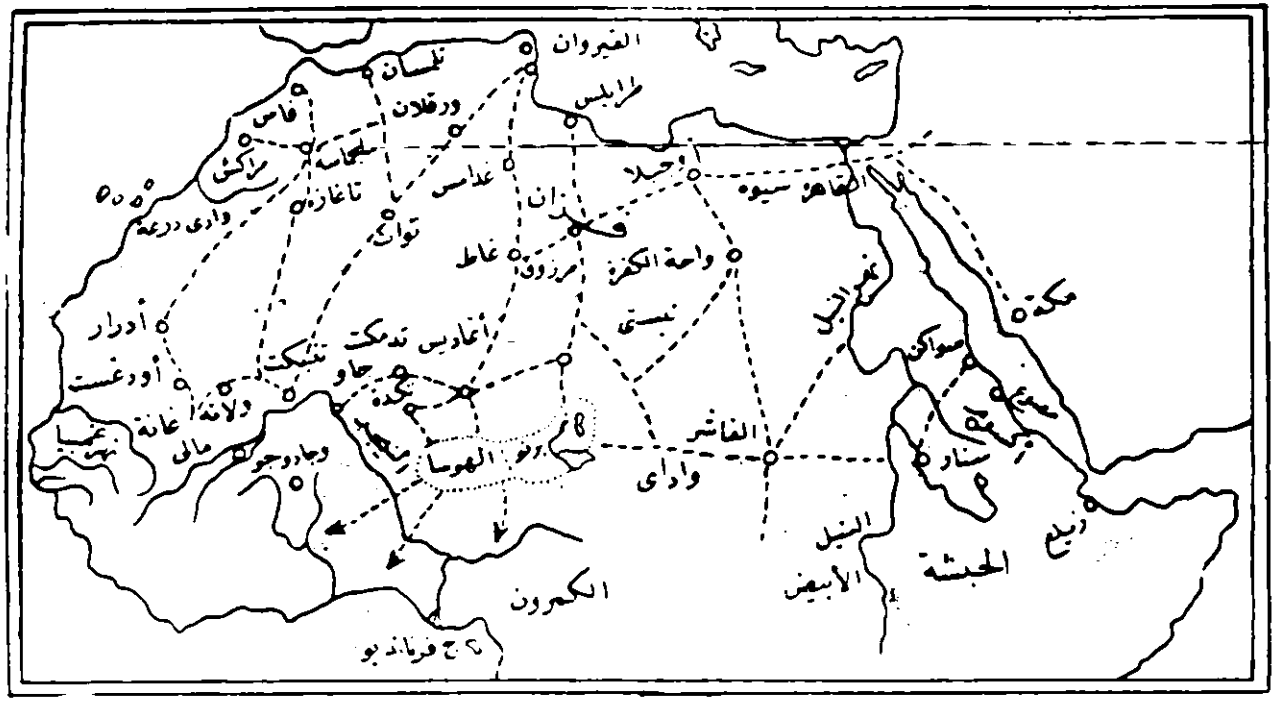

طرق القوافل الرئيسية بين بلاد السودان وشمالى أفريقيا

راجع الدكتور ابراهيم على طرخان : دولة مالى الإسلامية
ص : 114 وما بعدها .

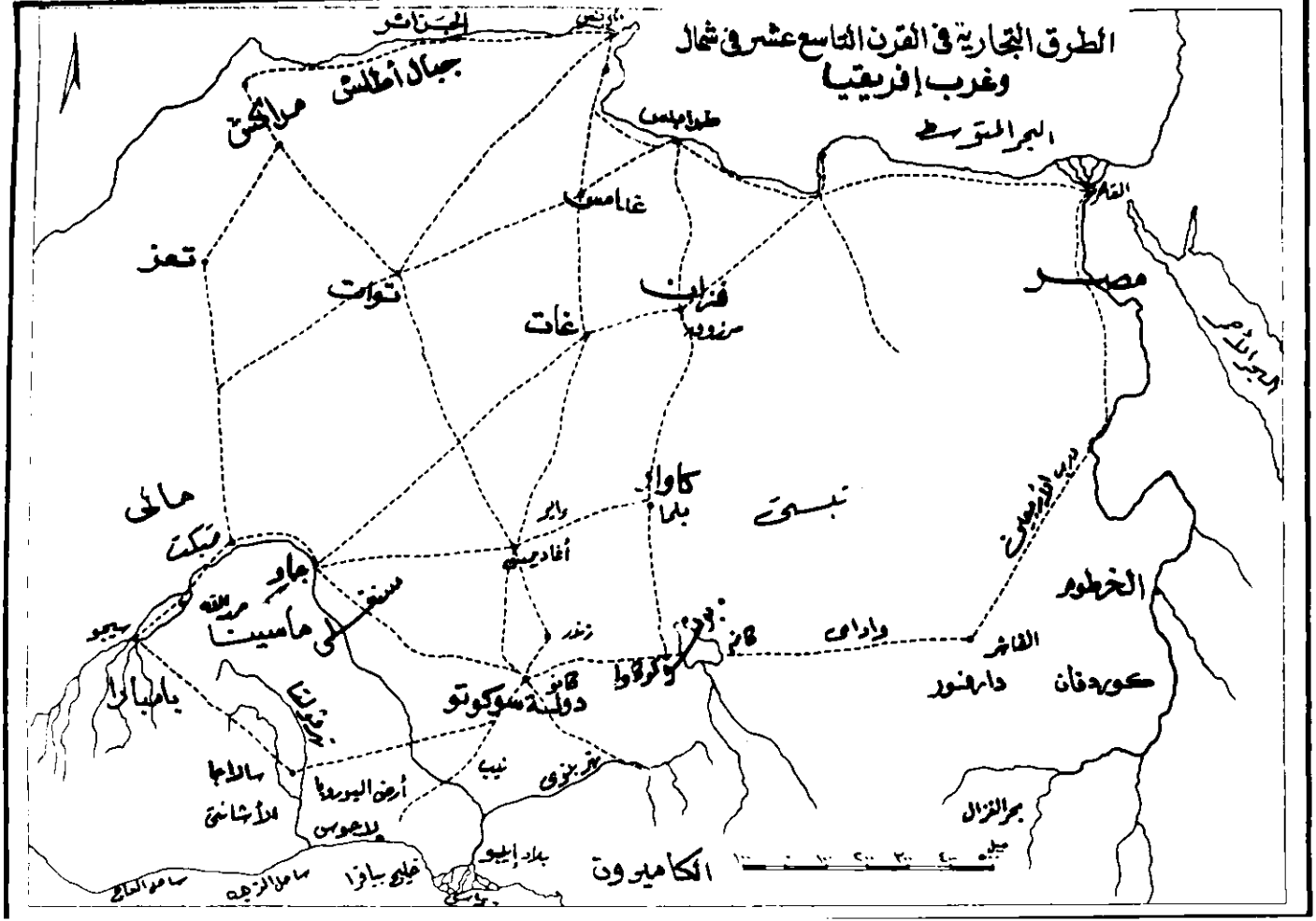
الطرق التجارية في القرن التاسع عشر في شمال وغرب إفريقيا
جبال أطلس
مراكش
طرابلس
البحر المتوسط
القاهرة
غدامس
تعز
توات
غات
فزان
مصر
البحر الأحمر
كاوار
بلما
تبستي
مالي
جاو
أغاديس
الخرطوم
وداي
الفاشر
كوردفان
دارفور
باباورا
دولة سوكوتو
الكاميرون
بحر الغزال

الشعور بانتمائهم إلى الأمة الإسلامية في أقل تقدير ، قد باءت حتى الآن بالفشل ومن هنا ينبغي على الدول المغاربية الإعتناء بتوثيق الروابط مع أفريقيا جنوب الصحراء أكثر من أي وقت مضى .

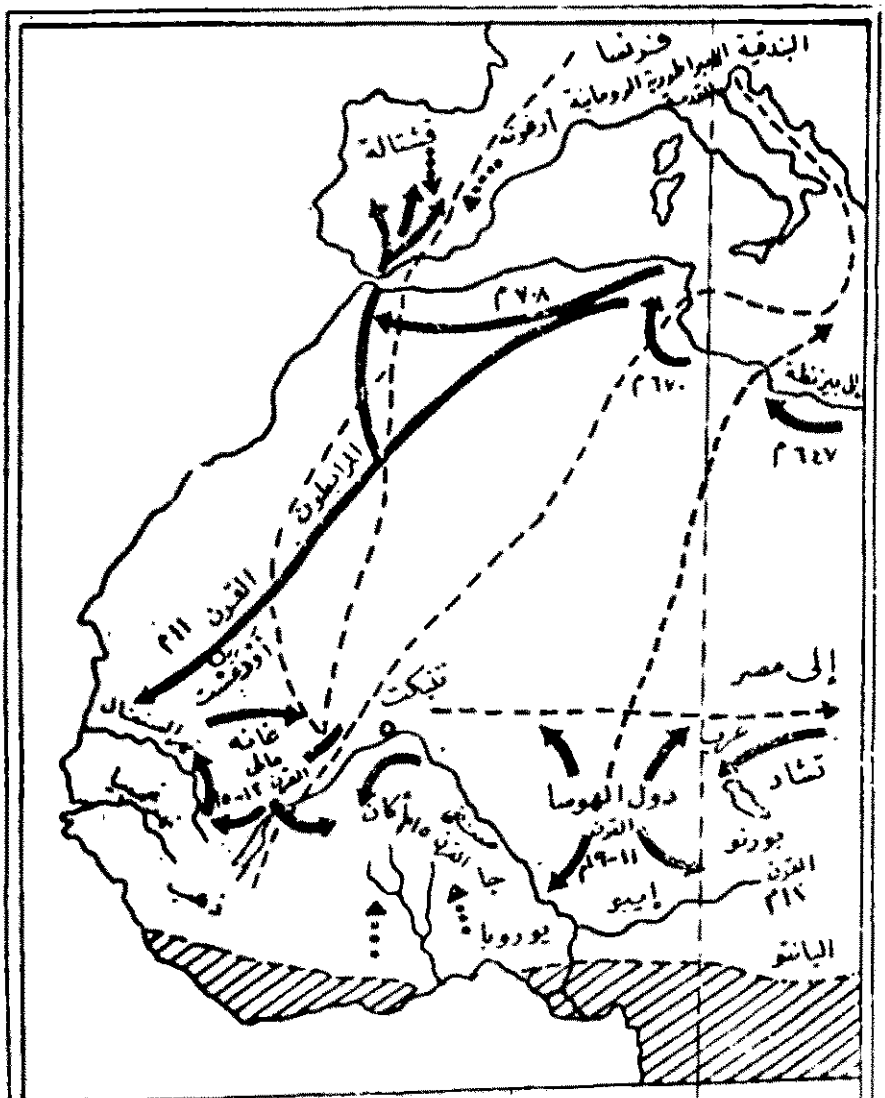

حركة انتشار الإسلام في السودان الأوسط والغربي من القرن السابع إلى القرن التاسع عشر

- - - - بعض طرق القوافل والمواصلات الرئيسية

سير الفتوح وحركات الدعوة الإسلامية

◄···· حركات مضادة للإسلام (وثنية ومسيحية)

المصادر والمراجع :

- ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله ت :257هـ - 871 م).

فتوح مصر والمغرب والأندلس ، تحقيق محمد صبيح ، دارالمعارف ، القاهرة 1974 .

- البلاذري (أحمد بن يحي بن جابر ت : 279 هـ 892 م) .

فتوح البلدان ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، النهضة العربية ، القاهرة 1956 .

- المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين ، ت : 346 هـ 956 م) .

مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق الشيخ محي الدين عبد الحميد ، دار الثقافة القاهرة ١٩٧٤.

- الأصطخريّ (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي ، ت 346 هـ - 956 م) .

المسالك والممالك ، تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال ، دار القلم ، بيروت 1961 .

- ابن حوقل (أبو القاسم محمد ، ت : 358 هـ - 968 م) .

صورة الأرض ، دار مكتبة الحياة ، بيروت 1964 .

- الادريسي (أبو عبد الله محمد بن الشريف ، ت : 562هـ/ 1166م) : نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والآفاق ، معهد الدراسات الشرقية بنابولي ، ايطاليا 1971.

- القلقشندي (أبو العباس أحمد بن على ، ت : 821 هـ - 1481 م) .

صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، الدار المصرية ،القاهرة 1915 .

– المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي، ت: 845هـ1441 م) .
الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام . الدار المصرية ، القاهرة 1908 .

– العمري (إبن فضل الله ، ت : 749 هـ 1348) .

– العري (إبن فضل الله ، ت 749 هـ 1348 م) .
مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تحقيق أحمد زكي باشا، مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة 1924.

– الدكتور عبد الرحمن عمر الماحي : تشاد من الإستعمار حتى الإستقلال ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1982 .

– الدكتور عبد الرحمن عمر الماحي : الدعوة الإسلامية في أفريقيا الواقع والمستقبل ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر تحت 1992 .

– الدكتور فضل كلود الدكو : الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لامبراطورية كانم ، رسالة دكتوراه دولة ، نوقشت في كلية اللغة العربية ، قسم التاريخ والحضارة بجامعة الأزهر ، سنة 1981 غير منشورة .

– المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم :
ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم في الحضارة الإسلامية .
معهد البحوث والدراسات العربية ، بغداد 1985 .

– الدكتور زاهر رياض : الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء .

– الدكتور إبراهيم علي طرخان : إمبروطورية البرنو

الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1975 .

- الدكتور جمال زكريا : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية ، مطبعة الجبلاوي القاهرة 1975.

- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم :

تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر .

معهد البحوث والدراسات العربية ، بغداد ١٩٨٤ .

- JEAN CHAPELLE : LE PEUPLE TCHADIEN SES RACINES ET SA VIE QUOTIDIENNE ET SES COMBATS
ED. L'HARMATTAN , PARIS 1980

- KI-ZERBO JOSEPH: LE MONDE NOIR AF. HISTOIRE ET CIVILISATION, PARIS 1963